الفصل الثاني
طريقة سيد قطب الفنية في التفسير

ترسم الشهيد طريقة جميلة في «الظلال» تتناغم وجو هذا التفسير البياني الفريد ، وهذه الطريقة يمكن تأليفها في الصور الآتية :

١ ــ التمهيد للتعريف بالسورة :

حينما يهم سيد قطب ~ تعالى بمواجهة السورة بالتفسير والبيان يقدم لها بتعريف يكشف بوضوح عن أغراضها ، وعن المحاور التي تتمحور حولها المضامين التي تحتويها .

وقد يتعرض ، خلال ذلك ، لما تمتاز به السورة من تصوير فني ، ذلك التصوير الذي يعد القاعدة الأساسية في التعبير القرآني المعجز ، والذي يعد سيد مكتشفها ويعد لذلك من الباحثين الجماليين المتميزين في القديم والحديث [(١)] .

كما قد يتعرض لما تمتاز به من إيقاعات موسيقية ، وتناسق فني رائع جذاب مما درسه سيد دراسة مستفيضة في كتابه «التصوير الفني في القرآن» ، وجعله شغله الشاغل في التفسير حالما يستدعى الموضوع المدروس الخوض في هذه المباحث الجمالية .

وحين نتأمل هذا التعريف الذي وطأ به للسورة نجد له وزنا ذا بال ؛ إذ إنه يلقى الأضواء الكاشفة على كل زاوية من زواياها ، فيتحدث عن أسباب النزول وعن المكي والمدني ، وترتيب الآيات ، وخصائصها وملامحها ، وما نضمه من موضوعات شتى يجمعها محور واحد .

---

(١) أهداني الأستاذ الأخ صلاح الخالدي كتاب سيد قطب «نظرية التصوير الفني» الذي صدر أخيرا والذي أثبت فيه بالحجة والبرهان أن «سيدا» هو صاحب هذه النظرية .

وقد يربط مفسرنا الشهيد بين مضامين السورة وبين الواقع المر الذي يحياه المسلمون اليوم ، وقد يعقد موازنات بين واقع إسلامي ماض وواقع جاهلي حاضر ، مبرزا العوامل التي أفضت بالمجتمعات الإسلامية إلى هذه النهاية المؤسفة ، كما يعقد موازنات بين السورة التي هو بصدد تفسيرها والسورة التي سبقتها وهكذا .

ويقودنا هذا التمهيد المهم إلى استشراف آفاق جديدة في السورة ، هي آفاق الوحدة العضوية التي تربط بين أجزائها ، وسيد قطب بهذا العمل يدحض الزعم الآمن القائل بأن السورة القرآنية تمثل أفكارا مبعثرة لا ينتظمها إطار ، وسيد قطب بهذا العمل أيضا يكسب تفسيره ميزة فريدة لا تكاد تقع عليها بهذه الملامح الواضحة والمعالم الجلية في أي تفسير آخر .

٢ ـ مقدمة موجزة لمجموعة من الآيات :

نلحظ أن سيدا يوزع السورة الطويلة إلى مجموعة من الآيات ، ويحصر كل مجموعة في درس ، ثم عند شروعه في تفسير مجموعة ما يقدم لها بحديث يوجز فيه مضامينها العامة إيجازا مركزا مع الإشارة إلى بعض خصائصها الفنية إن اقتضت الحال ـ كما فعل في سورة البقرة ـ وقد لا يتعدى هذا الحديث في بعض الأوقات أسطرا ، وذلك تبعا لطبيعة النص القرآني المراد دراسته .

ويعني هذا أن هناك تمهيدا للتعريف بالسورة كلها ، ومقدمة موجزة لمجموعة آيات منها وهذه الخطة ، في الحقيقة ، مفيدة جدا ، إذ بعد أن يكون القارئ عاش مع التمهيد المعرف «بكسر الراء» بالسورة لحظات غير قصيرة تطالعه بعد عرض فئة من الآيات مقدمة تركز على الخطوط العامة لهذه الفئة من الآيات لتحصر الذهن حولها وتبعد الفكر من مواطن التشويش تغريه لان يبقى مشدودا لما سيلقى عليه من شرح وبيان في موضوع هذه الآيات بالذات .

هكذا يوالي سيد قطب خطته مع كل فئة من الآيات إلى أن يتم السورة .

٣ ـ التفسير التفصيلي :

حين يعرض الشهيد ~ ، المقدمة الموجزة لمجموعة الآيات يدلف إلى الموضوع مفسرا المجموعة المذكورة جزءا جزءا يكشف عن مدلالاته بقلمه المضواع الندي بعيدا عن الخلافات الفقهية ، والاختلافات اللغوية والنحوية ، والجدالات الفكرية العقيمة ، والأساطير الإسرائيلية ، وما شئت من هذه الأمور التي تهيمن على كثير من التفاسير ، فتحجب عنها المقاصد السامية التي يستشرفها كتاب الله ، ويدعو إلى جلائها لفهم أسراره ، والغايات التي يرمي إليها .

إن من يمضي مع سيد قطب في تفسيره التفصيلي يحس أن الشهيد يستلهم روح النص القرآني ، ويتملاه ، ويستوحي إشعاعاته ، ويستندي أظلاله الوريقة الوارفة .

ففي مجال النحو مثلا يقول عن تفسير قوله تعالى من سورة الإسراء : ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:٤٢] ، ولو كما يقول النحاة ـ حرف امتناع لامتناع [١] ، فالقضية كلها ممتنعة وليس هناك آلهة مع الله سواء كانت نجما أو كوكبا ، إنسانا أو حيوانا ، نباتا أو جمادا [٢] .

هكذا نرى مفسرنا الشهيد لايرهق النص القرآني بالإشكالات المتعددة على عادة من سبقه من المفسرين ، بل يحاول وهو في غمار التفسير أن يلمح فقط للخلافات محافظا على المضمون القرآني الجميل من أن يعتم آفاقه جدل لا يخدم البتة الغاية المرجوة من كتاب الله الحكيم ، ولو أنه شاء أن يخوض درب هذه البحوث التي خاضها قبله المفسرون لحرم تفسيره ما تفرد به من إيحاءات ربانية ، وما استشرفه من

---

(١) يقصد بحرف امتناع لامتناع هو امتناع الجواب لامتناع الشرط ، ولو : من أحرف الشرط غير الجازمة انظر مثلا من مصادر النحو ابن هشام «عبد الله» أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ، ج٣ ، ص١٩٩ وما بعدها تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، ط ٤ ، عام ١٣٧٥ ـ ١٩٥٦ .

(٢) المجلد ٥ ، ص ٣٣١ .

حقائق عن المنهج الإسلامي وتصوره للإنسان والحياة والكون ، ومن حقائقه كذلك عن الإعجاز البياني عبر الآفاق القرآنية الوضيئة التي لو أنه حاول أن يغرق نفسه في المباحث الفقهية واللغوية لفقد التملي بألقها ، وهي تمد ظلالها الوريفة الندية المخضوضرة . وفي هذا الصدد يقول مصرحا بهذه الحقيقة : « كل ما حاولته ألا أغرق نفسي في بحوث لغوية أو كلامية أو فقهية تحجب القرآن عن روحي وتحجب روحي عن القرآن »[١] .

وليس معنى ذلك أن مفسرنا الشهيد لا يتعرض من قريب أو بعيد لبعض مسائل اللغة أو النحو أو لا يلمع إلى خلاف فقهي أو مذهبي ، لا فقد يشير إلى بعض ذلك إما في صلب الموضوع أو في الهامش للتنبيه على الأمر ، وقد يشرح الخلاف شرحا خفيفا دون أن يقف معه وقفة طويلة ، لان الإسراف في هذا ليس من طريقة «الظلال» فتم للشهيد بذلك أن ينعم بالمناخ القرآني في صورته الحافلة بالمرامي الجميلة ، وأشرك بذلك معه قارئه فعاش في أضواء القرآن الخضر ، وآفاقه الوسيع يستمد الخير .

٤ـ ربط النهاية بالبداية :

لأستاذنا سيد حاسة فنية وذوق أدبي رهيف ، ونظر نفاذ سديد ، يستنبط النص القرآني ، فيستخرج منه مدلولات جديدة ، ومباحث جمالية تتناول إعجاز التناسق الفني في التعبير القرآني ، وقد كشف عن هذا في كتابيه الفريدين : «التصوير الفني في القرآن» و«مشاهد القيامة في القرآن» .

أما في «الظلال» فقد طلع علينا بمبحث فني يتجلى في ربط نهاية السورة ببدايتها ، ذلك أنه حين ينتهي من التفسير التفصيلي للسورة كلها يلمع إلى ما بين ختامها ومطلعها من تناسق فني إعجازي لا يفطن له إلا من كان في مستوى سيد قطب ، من شفافية ذوق ، وإشراقة ذهن وركانة فكر ، ونداوة إيمان ، وصفاء سريرة .

---

(١) مقدمة في ظلال القرآن ، الطبعة الثانية .

ولكن مما يجدر التنبيه عليه هو أن باحثين من علمائنا الأقدميين قد درسوا ما يشبه هذه المباحث قبل سيد كبرهان الدين البقاعي (م عام ٨٨٥هـ ـ ١٤٨٠م) في كتابه «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» وجلال الدين السيوطي (م عام ٩١١هـ ـ ١٥٠٥م) في كتابه «تناسق الدرر في تناسب السور» ، غير أن سيدا درس العلامة بين البداية والنهاية في السورة ، كما درس التناسق الفني في التعبير القرآني عامة ، والسيوطي درس ما يربط السورة بالأخرى من مناسبة .

ومهما يكن فكل باحث كان يرمي إلى دراسة الوحدة الموضوعية في كتاب الله العزيز إبرازا لبعض مظاهر الإعجاز البياني فيه .

وليس ببعيد أن تكون هذه المباحث السابقة قد أثارت انتباه سيد قطب وفتحت له الباب للبحث في هذا الموضوع .

إذا هذا الملحظ الفني الذي طلع به علينا سيد قطب والذي يقوم بتوشيح العلاقة بين مفتتح السورة ونهايتها يكشف بوضوح عن القدرة الربانية في الإعجاز البياني للقرآن الكريم ، وفيما يلي أورد السور التي لاحظ فيها الشهيد ذلك :

سورة البقرة [١] ، سورة يونس [٢] ، سورة هود [٣] ، سورة يوسف [٤] ، سورة الرعد [٥] ، سورة إبراهيم [٦] ، سورة الإسراء [٧] ، سورة طه [٨] سورة الأنبياء [٩] ،

---

(١) المجلد ١ ، ص ٣٦ .

(٢) المجلد ٤ ، ص ٣٧٠ ، وص ٤٨٥ .

(٣) المجلد ٤ ، ص ٦٣٥ .

(٤) المجلد ٥ ، ص ٦٠ .

(٥) المجلد ٥ ، ص ١٠٢

(٦) المجلد ٥ ، ص ١٧٨ .

(٧) نفسه ، ص ٣٦٥ .

(٨) نفسه ، ص ٥٠٧ .

(٩) نفسه ، ص ٥٧٢ .

سورة المومنين [١] ، سورة الروم [٢] ، سورة الأحزاب [٣] ، سورة ص [٤] ، سورة الدخان [٥] ، سورة الحشر [٦] ، سورة الممتحنة [٧] ، سورة المعارج [٨] ، سورة الإنسان [٩] ، سورة عيسى [١٠] ، سورة الانفطار [١١] .

وليس يخفى أن هذا ملحظ بياني مهم يفتح أفقا في مجال الدراسات القرآنية يرتادها الباحثون لاستكشاف أسرار القرآن الكريم الذي لا تنقضي عجائبه على مر الأزمان ، وتوالي الأحقاب .

٥ ـ الخاتمة :

بجانب ذلك فإن سيدا قد يختم السورة بخاتمة تستغرق أحيانا صفحات تستقطب بين أعطافها المضامين الأساسية المشفوعة بالتوجيهات والتعقيبات والاستشهادات القرآنية الجديدة المستوحاة من الأجواء العامة للسورة .

وقد يتطرق الشهيد في هذه الخاتمة ـ حين يقتضي الأمر ذلك ـ إلى الحديث عن طلائع البعث الإسلامي ، وما ينبغي لها أن تضطلع به وهي تعيش تحت مظلة المجتمع الجاهلي على نحو ما ختم به سورة «هود» .

---

(١) المجلد ٦ ، ص ٥١ .

(٢) نفسه ، ص ٤٦٩ .

(٣) نفسه ، ص ٦٦٩ .

(٤) المجلد ٧ ، ص ١١٢ .

(٥) نفسه ، ص ٣٧٣ .

(٦) المجلد ٨ ، ص ٥١ .

(٧) نفسه ، ص ٧١ .

(٨) نفسه ، ص ٢٨٨ .

(٩) نفسه ، ص ٤٠٦ .

(١٠) نفسه ، ص ٤٧٣ .

(١١) نفسه ، ص ٤٩٧ .

وهذه الخاتمة ليست مطردة في خطته التي رسمها لنفسه في التفسير ؛ وإنها لا تتكرر إلا في السور الآتية :

سورة الأنفال [١] سورة التوبة [٢] سورة هود [٣] سورة الرعد [٤] سورة النجم [٥] سورة المطففين [٦] .

قد يتساءل البعض ما الفائدة من هذه الخاتمة ، والتمهيد يغني عنها ، أو ليس من الممكن إضاعة ما طرقه سيد فيها من الأفكار إلى التمهيد المذكور ، وبذلك يكون قد التزم المنهجية ولم يقع في نوع من التكرار الممل؟

هذا التساؤل قد يبدو منطقيا لأول وهلة ، ولكن بتدبر في الخاتمة ، والوقوف عندها مليا نجد أن سيدا ~ بعد الانتهاء من التفسير التفصيلي يحس فيضا من المعاني يغمر نفسه ، وتتزاحم في خاطره فما يقدر معها على أن يجمع رغبة قلمه المعطاء ، فيختم بعض هذه السور بخاتمة قد تطول أحيانا وقد تقصر أحايين أخرى ، يقدمها لنا في صورة تعقيبات وتوجيهات تتضمن الكشف عن بعض الحقائق ليس مجالها في قسم التمهيد ، وإنما مجالها في قسم الخاتمة بعد أن يكون القارئ طوف مع السورة في آفاقها المشرقة فيجد فيها ما يزوده بمعارف يستدعيها المقام في النهاية .

مهما يكن من أمر فقد تطلبت طبيعة بعض السور القرآنية هذه الخاتمة تبعا لما أوحت به إيحاءاتها من خواطر لمفسرنا في شكل تعقيبات وتوجيهات ، ولست أرى في هذا أي شذوذ عن منهجية البحث ، كما قد يتبادر للبعض ، بل بالعكس إنه منها

(١) المجلد ٤ ، ص ٧٦ ـ ٨٠ .
(٢) نفسه ، ص ٣٥٩ .
(٣) نفسه ، ص ٩٣٦ ـ ٦٥٨ .
(٤) المجلد ٥ ، ص ١٠٣ ـ ١٢٠ .
(٥) المجلد ٧ ، ص ٦٣٢ ـ ٦٣٩ .
(٦) المجلد ٨ ، ص ٥١١ ـ ٥١٣ .

في الصميم مادام يلتئم معها ، ولا يشذ عن النسيج العام للبحث .

ولأجل أن تتضح خطة سيد هذه في التفسير جلية المعالم للعيان وجب أن نورد مثالا نصطفيه من بين حشد من الأمثلة التي زخرت بها المجلدات الثمانية للظلال ، ونحاول أن يكون المثال شاملا كل مراحل الخطة المتبعة في التفسير ، وقد وقع الاختيار على سورة «هود» ، وسنقتصر على إيراد فقرات مما يكفي لتوضيح كل خطوة على حدة لأن المثال المختار يتألف من صفحات كثيرة .

يقول في أول التمهيد : «هذه السورة مكية بجملتها خلافا لما ورد في المصحف الأميري من أن الآيات ١٢ ـ ١٧ ، ١١٤ فيها مدنية . ذلك أن مراجعة هذه الآيات في سياق السورة تلهم أنها تجيء في موضعها من السياق بحيث لا يكاد يتصور خلو السياق منها بادئ ذي بدء ، فضلا عن أن موضوعاتها التي تقررها هي من صميم الموضوعات المكية المتعلقة بالعقيدة» [١] .

ويقول في مفتتح المقدمة والموجزة لمجموعة الآيات : «هذا الدرس الأول من السورة يمثل المقدمة ـ التي يتوسط القصص بينها وبين التعقيب ـ وهي تتضمن عرض الحقائق الأساسية في العقيدة الإسلامية» [٢] .

ويقول في التفسير التفصيلي : « ألف لام راء : مبتدأ خبره : كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير» وهذا الكتاب المؤلف من مثل هذه الأحرف هو الذي يكذبون به وهم عن شيء من مثله عاجزون » [٣] .

ويقول رابطا النهاية بالبداية : «وهكذا تختم السورة التي بدئت بالتوحيد في العبادة والتوبة والإنابة والرجعة إلى الله في النهاية يمثل ما بدئت به من عبادة لله

---

(١) المجلد ٤ ، ص ٤٨٩ ـ ٥٠٣ .

(٢) نفسه ص ٥٠٦ .

(٣) نفسه ، ص ٥٠٧ وما بعدها .

وحده والتوجه إليه وحده والرجعة إليه في نهاية المطاف ، إلى أن يقول : «وهكذا يلتقي جمال التنسيق الفني في البدء والختام والتناسق بين القصص والسياق بكمال النظرة والفكرة والاتجاه في هذا القرآن ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا »[١] .

أما عن الخاتمة التي تحدثنا عنها منذ لحظة وقلنا : إنها ليست مطردة في خطته فيمكن أن نمثل لها بفقرات مما ختم به سورة «التوبة» عن علاقة المجتمع المسلم وسائر المجتمعات الأخرى ، وعن فقه الحركة فقال : «وبعد ، فإن هذه السورة المحكمة تحتوي بيان الأحكام النهائية في العلاقات الدائمة بين المجتمع المسلم وسائر المجتمعات حوله ـ كما بينا في خلال عرضها وتقديمها ـ ومن ثم ينبغي أن يرجع إلى نصوصها الأخيرة بوصفها الكلمة الأخيرة في تلك العلاقات ، وأن يرجع إلى أحكامها بوصفها الأحكام النهائية المطلقة ، حسبما تدل عليها نصوص السورة . كما ينبغي ألا تقيد هذه النصوص والأحكام النهائية بنصوص وأحكام وردت من قبل ـ وهي التي سميناها أحكاما مرحلية ـ مستندين في هذه التسمية أولا وبالذات إلى ترتيب نزول الآيات ، ومستندين أخيرا إلى سير الأحداث في الحركة الإسلامية وإدراك طبيعة المنهج الإسلامي في هذه الحركة ، هذه الطبيعة التي بيناها في التقديم للسورة وفي ثناياها كذلك»[٢] .

*****

(١) المجلد ٤ ، ص ٦٣٥ .

(٢) نفسه ، ص ٣٥٨ .